النفاق الاجتماعى

للأستاذ عيسى متولى

لا يخلو مجتمعنا من أدواء تسربت جراثيمها فى دمه ، ونفثت فيه سمومها ، فأضعفت قواه وصدعت من كيانه ، كما تتسرب جراثيم الأمراض الى الديدان الصحيحة فتحطم بنيانها وتذهب بنضرتها ، وتتركها فريسة لمختلف العلل والأسقام .

والنفاق الاجتماعى أحد تلك الأدواء المتفشية فى مجتمعنا ، فهذا شخص يلقاك فى بشاشة مصطنعة ، وقد ارتسمت على شفتيه بسمة صفراء ، ويؤكد لك ودّه واخلاصه ، ويبالغ فى وصف شوقه اليك وحنينه الى طلعتك ، ويعطيك من طرف لسانه حلاوة ، ثم يعانقك ويضمك الى صدره وبين حناياه قلب ينطوى على الحقد والبغضاء ، حتى اذا ماتواريت بعد هذه التحية الحارة التى استقبلك بها راح يرميك بمختلف التهم ، ويصم كرامتك بأقبح الوصمات !.....

هؤلاء الذين يخادعون الناس ، ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، منافقون ، تسربت سموم النفاق فى دمائهم ، وجرت فى عروقهم فأفسدت ضمائرهم ، وزينت لهم طريق الخداع والرياء !.

ولعل أكثر الناس تعرضا لنفاق المنافقين هم الذين أتاهم الله بسطة فى المال والجاه ، فترى هؤلاء المنافقين يلتفون حول صاحب الجاه ، يتودّدون اليه بشتى الوسائل ، ويتسابقون الى كسب ودّه ورضائه ، ويفخرون بالتعرف والتقرب إليه ، ومشاركته المجالس أو الحديث يطأطئون له الهامات ، ويحترمونه الاحترام كله ، ويقدسون رأيه ولا يعصون له أمرا . واذا ما فقد الرجل جاهه وثراءه ، انفضوا من حوله وانصرفوا عنه ، بل وقلبوا له ظهر المجن وانقلب حبهم بغضا ، واحترامهم له ازدراء ، فاذا بالذى كان بالأمس القريب معقد الأمل ومعقل الرجاء مبغوضا مكروه . واذا بالذى كانت مجالسه بالأمس القريب مفخرة لروادها منبوذ لا يزور ولا يزار . واذا بالذى كان بالأمس القريب مقصد القاصدين وملاذ المعوزين فى عداد المنسيين لأنه فقد ثراءه ففقد بفقده رفقائه !...

وأين المودات من صحبة ... كنحل يحن وأنت الزهر
قليلون عند امتناع القطاف ... كثيرون عند رجاء الثمر

هؤلاء الذين يعرفون الناس فى رخائهم و يسرهم ، و ينفضون عنهم فى ضيقهم وعسرهم منافقون ، لأنهم لا يحفظون ودّا ، ولا يقدّسون عهدا .

وهناك نوع آخر من النفاق نراه متفشيا فى المصالح ودور الأعمال ، إذ يتزلف بعض المرؤسين الى رؤسائهم والايقاع بغيرهم ، فهم لا يتورعون عن اختلاق الأكاذيب ، ينسبونها الى بعض أقرانهم ممن تربطهم واياهم رابطة الزمالة ، ليسيؤا سمعتهم عن رؤسائهم ، و يظهروا هم على أكتاف هؤلاء الأبرياء !

هذا الموظف الذى يأكل لحم أخيه ميتا ، و ينال من كرامة زميل له فى غيبته ، أو ينسب اليه ما هو برىء منه منافق ، مشاء بنميم ولو أن كل رئيس لم يعر أمثال هؤلاء المنافقين أذنا واعية ، وألقى عليهم درسا فى الفضيلة وكرم الخلق لما تفشى داء النفاق فى المصالح الى هذا الحد !

نعم إن علاج هذه الحالة فى أيدى الرؤساء أنفسهم ، فلو أن كل رئيس حين يطرق بابه فاسق بغيا يزجره و يؤنبه ، و يؤكد له أن الموظف لا يكسب رضاء رئيسه عن طريق النفاق والدس والايقاع بالأبرياء ، انما يكسبه باجادته لعمله الموكول اليه ، واخلاصه فى أداء واجبات وظيفته على الوجه الأكمل ، لأقلع هذا المنافق عن نفاقه ولما عاد إلى الدس الوضيع والصيد فى الماء العكر ، أما تغاضى الرؤساء عن هذا النفاق واستماعهم الى الوشايات والدسائس فهو العامل الأول على انتشار هذا الداء الاخلاقى الوبيل فى مجتمعنا ، إذ يتمادى هؤلاء المنافقون المتملقون فى نفاقهم وتملقهم ؛ لأنهم يرونه طريقا سهلا الى قلوب رؤسائهم .

ومن الناس من يتظاهر بالورع ، ويلبس مسوح التقوى ليتخذ من هذا المظهر وسيلة لقضاء حاجاته ومآربه . فكثيرا ما تروى لنا الصحف حوادث الاحتيال التى يرتكبها أمثال هؤلاء اذ يلقون فى روع الناس أنهم من أولياء الله الصالحين ، وأن فى مقدورهم أن يباركوا الناس وأموالهم ، فاذا ما وقع أحد البسطاء فريسة فى شباكهم سلبوه ماله ، شأنهم فى ذلك شأن هؤلاء الدجالين الذين يدعون معرفة الغيب ومكنوناته ؛ ولا يعرف الغيب إلا الله ، ولا يطلع على غيبه أحدا .

يوهم هؤلاء الدجالون الناس أنهم يملكون مفاتيح الأمور ، وقضاء الحاجات ، وتذليل الصعب ، وشفاء المرضى ؛ ليلتهبوا أموالهم ومن عجب أن يجد هؤلاء الدجالون المنافقون من يصدق مزاعمهم ، فيطرق بابهم طالبا قضاء حاجة ، أو مستفسرا عن شأن من شؤون مستقبله .

ومن بين هؤلاء المتسولين الذين يعترضون طريقنا فى الغدو والرواح منافقون ، لأنهم يتظاهرون بالحاجة ، ويتفننون فى الظهور أمامنا بمظهر العاجزين عن العمل ليستدروا عطفنا واشفاقنا ، فمنهم من يصور لك أنه مقعد ، وما هو بمقعد ومنهم من يتعامى وما هو بأعمى. وهذا لون مضيع من الوان النفاق ، والواقع أن هؤلاء المتسولين استمرؤا حياة التسول ، التى حببت اليهم الكسل والخمول ، والقعود عن السعى وراء الرزق !

ويلعب النفاق دورا خطيرا فى دنيا الحب ، ولهذا النفاق الكثير من الضحايا فهذا شاب يرتل فى اذن فتاته الكلمات المعسولة ، والوعود البراقة ، ويعدها ويمنيها وما يعدها الا غرورا ثم ينقض عهده ، ويترك فريسته ملطخة بالعار .

فلنحذر كل فتاة من هذه الحلوى المسمومة التى يعرضها عليها الشباب المنافقون الذين يزينون للعذارى طريق الفساد ويفرشونه بالورود .

وبلغ من جرأة بعض الأفراد أن زين لهم النفاق العبث بحرمة الأديان واتخاذها وسيلة لأغراضهم ، ومطية لمآربهم ، فيحدث أحيانا أن يعمد بعضهم الى التظاهر باعتناق دين غير دينه ، لاحبا فى هذا الدين الذى اعتنقه ، بل ليتحرر من قيود دينه فيتخلص من زوجة لا يجد طريقا الى التخلص منها ، أو لغرض فى نفسه ، فكأن الدين فى نظر هؤلاء العابثين ثوب يلبس ويخلع متى شاء صاحبه .

هؤلاء الذين يعبثون بحرمة الأديان ينافقون لأنهم يخادعون الناس ، ويحتالون عليهم ، ويضلونهم ألاساء ما يبررون :

ونستطيع أن نفسر إسرافنا فى الزين والتجمل بأنه لون من الوان النفاق الاجتماعى لاننا حين نسرف فى التأنق والتجمل إنما نريد أن نخفى عن أبصارهم عيوبا لا نريد أن تقع عليها أعينهم .

فهذه السيدة التى تقدمت بها السنون واشتعل منها الرأس شيبا تأبى أن يدرك الناس شيخوختها ، فتعمد الى مختلف المساحيق والأصباغ تغيربها من لون شعرها وتحيله الى لون آخر ، لأنها تعتقد أن الشيب إحدى أمارات الشيخوخة التى تبغضها البعض كله .

كما أن إسراف بعض الناس فى مظاهر حياتهم ، كاقامة الأفراح والمآتم يعتبر لون من الوان النفاق ، لأنهم يريدون أن يظهروا أمام الناس بمظهر الغنى واليسار ولو اضطرهم ذلك الى الاستدانة ، وهكذا يدفع النفاق بكثير من الناس الى طريق شائك لا تحمد عقباه .

عيسى متولى